العرب
الأحد 2021/07/25
السنة 44 العدد 12128

لغة العيون في زمن الأقنعة.. تواصل بلا كلمات

جائحة كورونا أعادت إلى العيون لغتها وثقافتها ومركزيتها التعبيرية

من المفارقات الكبيرة التي أحدثتها جائحة كورونا أنها وهي تهدد الجسد وتحوّله إلى محل شك ومتابعة وخوف وريبة، وتصنع منه الآخر الذي قد يكون حاملا للفايروس والمهدد بالموت، فإنها أعادت الاعتبار من ناحية أخرى إلى لغة الجسد، وخاصة إلى العيون، التي تختزن ثقافة بشرية عميقة عند مختلف الشعوب على اختلافها.

حميد القويسمي

العيون لها لغتها في زمن الأقنعة

لا تقتصر عملية التواصل المباشر بين البشر على تحريك اللسان والشفتين فحسب، بل إن العملية تتحقق بتوظيف وسائل أخرى غير لفظية متعددة؛ مثل تعابير الوجه وحركات الرأس واليدين والكتفين، وأوضاع الجسد المختلفة، فالرسائل غير اللفظية تعتمد أساسا على الحركة أو الإشارة أو الإيماء أو الغمز أو اللمز.

إن الأمر هنا يتعلق اختصارا بلغة الجسد، ولعل لغة العيون ودلالتها ليست إلا واحدة من التعابير غير الكلامية للجسد التي طفت على السطح؛ بسبب وباء كورونا المستجد الذي استطاع بجبروته أن يعيد للغة العيون سحرها وغوايتها وسطوتها وغموضها أيضا.

إن الحديث عن التواصل يستدعي الإحاطة بمفهومين أساسيين؛ يرتبطان بنسقين لغويين متكاملين، لهما صلة بالمرسل والمرسل إليه؛ هما التواصل اللفظي والتواصل غير اللفظي.

اللفظي وغير اللفظي

إن القصد من التواصل اللفظي هو التواصل الكلامي الذي يتحقق باستعمال القناة الصوتية والسمعية؛ لإنتاج المعنى وإيصاله للمتلقي، وهو ما يعرف اختصارا باللغة اللفظية أو اللغة الصامتة. والحديث عن هذا المفهوم للغة، ليس موضوعا جديدا في الدراسات اللغوية والتواصلية؛ ذلك أن العديد من الأعمال اللغوية المبكرة التي تناولها علماء اللغة الأوائل كانت تحوم حول هذه الموضوع، لذلك يجد الباحث نفسه، في أحيان كثيرة، مضطرا للعودة إلى الدراسات والأبحاث القديمة ليستمد منها تعريفا أو تأريخا أو نظرية أو مقارنة.

> البشر يتواصلون مع بعضهم البعض بلغتين مختلفتين؛ لغة الألفاظ عبر الأصوات، ولغة الحركات عبر الجسد كأداة لإنتاج المعاني

وضمن هذا السياق، عرّف ابن جني اللغة قائلا "أما حدّها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" (أبوالفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط.2، 1913، ج.1، ص.34). هذا التعريف يتضمن قضايا لغوية تناولها علم اللغة الحديث؛ تهم أساسا طبيعة اللغة من حيث هي أصوات، وظيفتها من حيث هي تعبير، وطابعها الاجتماعي النفسي والعقلي.

ونظر دو سوسير إلى اللغة على أنها نتاج اجتماعي لملكة الكلام ومجموعة من المواصفات التي يتبناها الكيان الاجتماعي لتمكن الأفراد من ممارسة هذه الملكة، "فلا وجود للغة إلا بنوع من الاتفاق يتوصل إليه أعضاء مجتمع معين، وعلى الفرد أن يقضي فترة معينة يتعلم فيها وظيفة اللغة، فالطفل يدرك هذه الوظيفة بصورة تدريجية، واللغة شيء متميز جدا. فإذا فقد المرء استخدام الكلام فإنه يبقى محتفظا بها إذا كان يستطيع فهم الإشارات الصوتية التي يسمعها" (فردناند دو سوسير، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، العراق، 1985، ص.33). فاللغة، بهذا المعنى، ملكة فردية تحتاج إلى هيكل اجتماعي لكي تظهر فيه وتتطور عبره ومن خلاله.

وهذا التصوّر للغة يؤكده فندرس حينما اعتبر أن اللغة محدودة بحدود الفرد؛ ويتجلّى ذلك عندما يقوم الباحث اللغوي على دراسة الظواهر الفردية؛ مثل عواطف النفس وانفعالاتها وأهوائها التي تعكسها اللغة. غير أنه في الوقت ذاته يعتبر اللغة متعددة؛ بحيث لا توجد لغة واحدة فقط في جميع الأقطار والأصقاع؛ فاللغة "واحدة وعديدة في آن واحد؛ واحدة لدى كل الشعوب ولكنها متعددة بتعدد جميع الأفراد الذين يتكلمونها" (جوزيف فندرس، اللغة، ترجمة عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنكلو المصرية، 1950، ص. 295). ومن ثم، فاللغة مركب معقد يطال كل فروع المعرفة والعلوم.

في حين يرى ماريو باي أن اللغة لا تقتصر على تعريف واحد، حيث تحتوي وتضم، ضمن هذه التعريفات المتعددة، الإشارات والإيماءات وتعبيرات الوجه والرموز من أيّ نوع، ومن ثم فإن "هناك تعريفات أوسع للغة؛ بأنها تلك التي تحمل معنى، أو كل شيء له معنى، أو كل شيء ينقل المعنى من عقل إنساني لآخر" (ماريو باي، أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط .8، 1998، ص. 35). كما يرى أن اللغة تخضع لمجموعة من العوامل التاريخية والجغرافية والاجتماعية والسياسية. فكما أن كل هذه العوامل متغيرة ومؤقتة ولا توصف بالدوام، فإن اللغة كذلك ظاهرة متغيرة ومؤقتة، وخاضعة لقوانين التطور (ماريو باي، أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط.8، 1998، ص.37). وهذه العوامل هي التي تبرز القيمة العملية للغة، وتجعل منها موضوعا واسعا للدراسة.

أما جون بيرو، فلم يذهب بعيدا عن تصوّره للغة؛ فهي في نظره أداة للتواصل بين الناس، وتوجد حيثما يوجد هناك أناس يعيشون في مجتمع. كما أن اللغة واحدة في أساسها رغم تعدد تجلياتها ووظائفها؛ فهي "تقوم على الجمع بين مضامين فكر وبين أصوات ناتجة عن طريق الكلام. وهذا الجمع يحدّد المعنى الضيق والدقيق لكلمة لغة التي يمكن أن يكون لها معنى أعم. وباعتبارها وسيلة تواصل فهي تندرج حينئذ ضمن مجموعة الأدلة التي تبلغ بإتقان نسبي دلالات تمس كل حواسنا.. إلا أن إمكانيات التواصل متفاوتة جدا بالنسبة إلى مختلف الحواس. فللغة البصرية وللغة السمعية مكانة خاصة. وقد شكلت الإشارة؛ التي هي سند للخطاب في تعبيريته الخاصة، نظاما كاملا للتواصل بالنسبة للصم البكم" (جون بيرو، اللسانيات، ترجمة الحواس مسعودي ومفتاح بن عروس، سلسلة العلم والمعرفة، دار الأفاق، الجزائر، ط. 16، 2001، ص. 2–3). ومن هنا يبرز تعدد وظائف اللغة التواصلية والسيميائية.

يعتبر التواصل غير اللفظي أداة مكملة، ووسيلة لتوضيح الرسالة اللفظية وتأكيدها، فالبشر يتواصلون مع بعضهم البعض بلغتين مختلفتين؛ لغة الألفاظ التي تتحقق بواسطة الأصوات، ولغة الحركات التي يتحول من خلالها الجسد إلى أداة لإنتاج معاني ونماذج بديلة لعملية التواصل غير الشفهية؛ وذلك من خلال توظيف الإيماءة وتعابير الوجه ونظراته، وكل حركات الجسد.

ويركز مارتيني، في هذا السياق، على الجانب السيميائي للغة بوصفها نظاما من العلامات التي تزخر بإشارات بحيث تصبح "اللغة أداة الاتصال عن نظام من الرموز لها معان أعطاها إياه الإنسان. فالرمز هو الشيء الذي يمثل أو يرمز إلى شيء آخر. والكلمة عبارة عن رمز يمثل فكرة أو شيئا في الواقع.

وقد تكون هذه الرموز على شكل أحرف أو أرقام أو ألوان أو زوايا أو خطوط أو كلمات أو إشارات أو لغة أعضاء الجسم.. ويتفق علماء النفس المحدثون على أن الرموز اللغوية هي أرقى أنواع الرموز وأقدرها على نقل المدركات من مجال الغموض اللاشفوي إلى حيز الوضوح الشفوي، واللغة في نظرهم مجموعة الرموز التي تنقل من إبهام الأحاسيس إلى نور الفكر" (ذكرى جميل البناء، أنواع الاتصال الإنساني، محاضرة قسم الأنثروبولوجيا والاجتماع، كلية الآداب، جامعة المستنصرية، مارس 2020، ص 39). لذلك، يعتبر التواصل غير اللفظي وسيلة لنقل أفكار المرسل ومشاعره، وفق رموز وإشارات ذات معنى، للمتلقي.

ويمكن أن تندرج ضمن المهارات غير اللفظية؛ التي يوظفها الفرد للتواصل مع الآخرين كل من النظرات، تعبيرات الوجه، الإيماءات، التواصل بالصور. فهذه الإشارات والحركات التي تشكل مهارات الجسد؛ قد تكون "إرادية وغير إرادية، تصدر من الجسم بأكمله أو بجزء منه، لإرسال رسالة، من خلال الوجه والصوت والأصابع واليدين واللمس ووضعية وحركات الجسم والمظهر والألوان والمسافات والفراغ المكاني والدلالات الرمزية لاستخدام الوقت" (مدحت محمد أبوالنصر، لغة الجسم دراسة في نظرية الاتصال غير اللفظي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط.1، 2012، ص 14). ولعل إتقان هذه الإشارات والحركات، كأدوات غير لفظية، تساعد الإنسان ككائن اجتماعي على تحديد نوع علاقته مع الآخرين.

مركزية الجسد

يعتبر الجسد إحدى أهم الأدوات الأساسية التي يرتكز عليها الخطاب في التواصل اليومي بين البشر، ويعتبر من أهم المواضيع لما يطرحه من أبعاد دلالية؛ تنعكس تجلياتها في مختلف المعارف الإنسانية اهتماما ودراسة، فالجسد "يحتل مكانة هامة في حياتنا اليومية، إنه المبدأ المنظم للفعل وهو الهوية التي بها نعرف وندرك، وهو أيضا الواجهة التي تخون نوايانا الأكثر سرا" (سعيد بنكراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط.3، 2012، ص 191). لذلك، يعتبر الجسد علامة تستمد دلالتها من السياق الثقافي والاجتماعي والنفسي بكل تجلياته وتمثلاته وأبعاده.

وقد ظل الجسد موضوعا هامشيا ردحا من الزمن مقابل الاهتمام بالروح وتقديسها؛ باعتبارها جوهر الإنسان وكنهه، وقد كرّس هذا التوجه علماء الدين والكتب المقدسة. إلا أن هذا الاعتقاد سرعان ما تغير، وأصبح الجسد تيمة لطرح الأسئلة والتأملات، فلم يعد الجسد مجرد وعاء ذي قيمة مادية، ولكنه بات يكتسب أبعادا ووظائف أخرى؛ ولعل التواصل ليس إلا واحدا من هذه الأبعاد والوظائف ضمن الوظائف المتعددة التي يتميز بها الجسد؛ أبعاد ووظائف تحمل دلالات وأبعادا رمزية مرتبطة بالذات والمجتمع على حد سواء. ولا يمكن الحديث عن اللغة الصامتة بمعزل عن الجسد باعتباره محددا أساسيا لهوية الإنسان. والجسد ليس إلا وسيلة من وسائل تبليغ الرسائل؛ وفق الزمان والمكان والسياق. فالجسد، لهذا الاعتبار، بمثابة وسيط سيميائي حامل للدلالات والقيم الثقافية والاجتماعية والنفسية والجمالية السائدة في المجتمع. فإذا كانت اللغة، حسب بيير گيرو، عاجزة عن التعبير في بعض الأحيان، فإن حركة الجسد تعينها في ذلك، بحيث أصبحنا نتحدث عن جسدنا وجسدنا يتحدث معنا؛ بطرق متعددة وفي مستويات متنوعة.

إن أجسادنا تعبر عن انفعالاتنا التي هي بمعناها الحقيقي بمثابة أعضائنا ومن ثم، فإن لغة التواصل لا تقتصر على استعمال اللسان وأعضاء النطق فحسب، بل تشمل كذلك باقي أعضاء الجسم وحركاتها.

تشترك كل المجتمعات البشرية في توظيف لغة الجسم وإيماءاته في إيصال المعنى. وتشمل لغة الجسد غير اللفظية الإيماءات والتعابير الصادرة عن أجزاء من الجسد، في مواقف مختلفة، "فكل إيماءة وحركة من أطرافك تشكل لغة بحد ذاتها، ويكفي أن تراقب شخصا ما لتفهم من حركات رأسه وأصابعه ما يريد أن يقول، وتعرف من طريقة جلوسه وملامح وجهه حالته النفسية. ولغة الجسد من الوسائل السامية التي تحقق الكثير من التجاوب بين الناس" (محمد محمود بني يونس، سيكولوجيا الدافعية والانفعالات، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط.1، 2007، ص340). وقد تكون هذه الحركات إرادية أو عفوية، فطرية أو مكتسبة؛ تعزز اللغة اللفظية وتؤكدها بين الأطراف المشتركة في عملية التواصل.

فإذا كانت اللغة الشفهية، في بعض الأحيان والمناسبات، غير كافية لمنح المضمون صبغة الجمال والجاذبية، فإن اللغة غير اللفظية تساندها لجعل هذا المضمون أكثر وضوحا وانسيابا وتأثيرا على المتلقي؛ ذلك أن "الرسالة اللفظية لا يمكن إدراكها، إلا من خلال الدلالات غير اللفظية المصاحبة لها في الحديث الاتصالي. فمظاهرنا الخارجية وإيماءاتنا الجسدية وحركات الأيدي والأعين ودرجة الخفوت والجهر في الصوت، جميعها تقوم بأدوار مساندة في تفسيرنا وفهمنا لكلمات وعبارات كل منا في الموقف الاتصالي" (عبدالله الطويرقي، دراسة في الأنماط والمفاهيم وعالم الوسيلة الإعلامية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط. 2، 1997، ص 79).

بحيث "لا يقتصر نقل الأفكار والمعاني على استخدام الكلمات المقروءة أو المنطوقة، بل هناك وسائل يتم من خلالها الاتصال، وتكاد تكون أكثر من تلك التي نتبادلها من خلال الاتصال اللفظي. وفي الحقيقة فإننا دائما ما ننقل رسائل غير لفظية، وتكون في الغالب من طابع المشاعر والأحاسيس والعواطف، بينما يكون الاتصال اللفظي في الغالب للتعبير عن الأفكار، وتبادل المعارف. فإذا كان الحوار الجيد فنا يتطلب استعدادا فطريا وخبرة مكتسبة في الوقت نفسه؛ فإن الحركة والإشارة والإيماءة تعد وسائل اتصال أساسية وجوهرية في مثل هذا المستوى من الحوار" (أبوعياش نضال، الاتصال الإنساني من النظرية إلى التطبيق، كلية فلسطين التقنية، ط.1، 2005، ص.119)، وهذه الأدوات تؤدي أدوارا وظيفية مكملة للغة المنطوقة في عملية التواصل؛ تدل على خبرات وقدرات وتجارب الإنسان المتراكمة.

ولا يمكن كذلك الحديث عن الجسد دون الإشارة إلى تيمة الجمال؛ باعتبار الجسد ذلك الوعاء والشكل الحامل للقيم الجمالية؛ بحيث أن "خصائص الجمال ومقوماته تتموضع على الهيئة الخارجية أو الشكلية، وهذا كلام عزيز على الطعن إذا أردنا أن نتعامل مع الجمال تعاملا موضوعيا، وحتى ذاتيا، ذلك أننا نفترض أساسا أننا نتعامل مع جمال لا تربطنا به روابط عاطفية سابقة، ولا روابط منفعية لحظية" (عزت السيد أحمد، الجمال وعلم الجمال، حدوس وإشراقات للنشر، عمان، الأردن، ط.2، 2013، ص.66)، والعيون، ليست إلا قيمة من القيم الجمالية التي تساعد على تفكيك الشفرات الدلالية للجسد المختلفة.

> لغة العيون تعكس طبيعة العلاقات بين الناس، وتكشف مشاعرهم وانفعالاتهم وتحدد مواقفهم وانتماءاتهم

ما أشبه اليوم بالأمس، بعدما كان اللثام والنقاب والخمار، جزءا لا يتجزأ من لباس المرأة التقليدية؛ سواء العربية أو الأمازيغية، بات القناع اليوم، في زمن كورونا، جزءا من لباس المرأة والرجل والطفل على حد سواء؛ مثله مثل القبعة والقفازات والنظارات، ووفق الأذواق وألوان البشرة والمناسبات والطبقات الاجتماعية.

جائحة كورونا أعادت للعيون لغتها وثقافتها وتميزها، أعادت للعيون مركزيتها التعبيرية والدلالية والإيحائية في الزمان والمكان والسياق. وإن وضع القناع قد يساهم ولو آنيا في كسر الطابوهات المرتبطة بالعيون؛ والتي ما فتئت تشكل أنماطا ثقافية سائدة في المجتمعات على مر العصور.

ص10 وص11 تنشران كاملتين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية